



فلسفة صناعة الإنسان المتحرر

مفاهيم تربوية

ذ. محمد ابريجا

أبدأ هذا المقال بإجراء اصطلاحي أساسي يتعلق بمعنى إجرائي عملي لمفهوم التحرر، المصاغ في قالب "التفعل" والذي يفيد المداومة على الشيء، إلى حين رسوخه وتمكنه حتى يصير صفة ملازمة، وقد استفدت هذا المعنى من الحديث الشريف "إنما العلم بالتعلم و إنما الحلم بالتحلم و من يتحر الخير يعطه و من يتق الشر يوقه"¹ فالحرية حالة يكون عليها الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو قيد أو غلبة ويتصرف طبقاً لإرادته وطبيعته، خلافاً للعبودية² وهي لا تتحقق إلا بفضل هذا التحري الدائم وهذا السعي الذائب، نحو الحرية فكما أنه لا يتحصل علم بدون تعلم، ولا صبر بدون تصبر، ولا حلم بدون تحلم، فلا حرية تتحقق بدون تحرر، وقد اهتمت الفلسفات قديما وحديثا بمسألة الحرية، إلى حد الاعتقاد بأن خاصية الفلسفة هي كونها تفكير حر.

إن القول في قضية الفلسفة والتحرر يجد مشروعيته، فيما تدعيه الفلسفة من كونها خط دفاع أول عن الحرية بكل تجلياتها: كحرية الفكر، والحرية السياسية، والحرية الشخصية، وحرية الاعتقاد والتعبير وغيرها. ولذلك تحظى الحرية باهتمام جل الأنساق والمدارس الفلسفية، التي تعتبرها أساس البناء الفلسفي، ويتأكد هذا الاهتمام في الفلسفات الأخلاقية، إذ هي أساس الأخلاق وشرط الإيمان وجوهر إنسانية الإنسان، فالأرواح في هروب دائم إلى الحرية كما كان يقول عزت علي بيجوفيتش ولذلك فقانون الحرية يمثل للعالم الأخلاقي ما تمثله الجاذبية بالنسبة للعالم المادي. وأسبقية الحرية لا تحتاج

1- ابن شاهين، الأعمال «بَابُ مُخْتَصَرٍ مِنْ كِتَابِي كِتَابِ الْجُلْمِ وَقَضَائِهِ...» 243 وقال الألباني في الصحيحة، ص: [60/1]، رقم [342]: "إسناده حسن أو قريب من الحسن".

2- معجم المعاني الجامع، رابطته <https://www.almaany.com>، تمت زيارته يوم 2019/5/20

لإقامة دليل من خارجها، فهي دليل ذاتها³، وبذلك فهي شرط مسبق لقيام الفلسفات الأخلاقية والمدارس الفكرية والشرائع الدينية. وإذا ثبت أن أي نفي للحرية هو نفي للفلسفة، ونفي للشرعية ولل فكر وللأخلاق، فهو بالنتيجة نفي للإنسان. إذ الإنسان هو كل هذه العناصر، فلا إنسان بدون فكر وبدون فلسفة وبدون أخلاق وبدون دين وبدون ثقافة، ووجود كل هذا مناطه وجود الحرية، فقد توجب طرح السؤال عن شروط بناء وصناعة الإنسان المتحرر، وقبل ذلك وجب تحرير القول في المقصود بالتحرر، والإنسان المتحرر.

تحرير القول في مفهوم التحرر والإنسان المتحرر.

إن المقصود بالتحرر هو أن يكون الإنسان قادراً على فعل الخير والسلوك وفق الفضيلة ليس لأنه مكره على ذلك، وإنما لأنه يريد ويلزم نفسه بذلك ويتحراه. وألا يكون هناك عائق أو حاجز من ذاته أو من خارجها يعيق هذه الإرادة. التي تنهض بكل قواها الفكرية والعملية لتحقيق غاية وجودها، ومقصد كينونتها، الذي هو إشاعة الخير والفضيلة، ومحاصرة الشر والرذيلة. فكل حوافز هذا المقصد حوافز للتحرر، كما أن كل عوائق هذا المقصد تجليات للإكراه والاستبداد والقهر والحتمية والشر والخوف بما هي نواقض للحرية. والإنسان المتحرر تبعاً لذلك هو من يدافع عن هذا الاختيار المنسجم مع طبيعته الأخلاقية وخاصيته الإنسانية، فهو متحرر لأنه فاعل خير وفاضل متحل بالفضيلة، ومتخل عن أضرارها.

شروط انبثاق عملية التحرر.

إن من أهم شروط قيام أية فلسفة للتحرر، إعادة الاعتبار للشخص الإنساني، لأن صفته الجوهرية هي التحرر أي سعيه الدائم ليكون حراً، وكل الدعوات التي تتلبس بالحرية، متى لم تنصف الشخص و تتيح له إمكانات الانطلاق إلى معانقة وصناعة مصيره في بعده الفردي والجماعي، هي دعوات مضادة للحرية في حقيقتها، معادية للإنسان في جوهرها، وبالتالي فتحرر الذات شرط لتحرر الجماعة، والحرية والأصالة الذاتية منطلق لتحقيق الحريات بالجمع كما يصفها محمد عزيز لحبابي على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فأى أمة أو جماعة بشرية لا تتحقق حريتها إلا إذا تكونت من أشخاص حققوا ذواتهم داخل المجموع، فأصالة الذات تحي من الذوبان الذي يميع الجماعة والأمة، فتصبح غطاء كغشاء السيل، وزبدا كزبد البحر، ولذلك فمساهمة الجماعة في تحرر الشخص مهم

3- علي عزت بيكوفيتش، هروبي إلى الحرية، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، الطبعة الأولى أيار مايو 2002، دار الفكر دمشق، ص 24

للجماعة وللشخص معا، فسطوع نجوم الأشخاص في سماء الجماعة يزيد بها، وقدرة على العطاء وتبديد ظلمات الطريق.

وإن من شروطها أيضا نسف وجود الخوف، فالإنسان يتصرف ضد الحرية التي هي شرط كرامته، في حالة شعوره بالخوف، ومنه فتحرير الإنسان من كل أنواع الخوف، وتربيته على اقتحام سدودها، عبر تنوير عقله، وهدايته إلى سواء السبيل، سبيل الخير والفضيلة، وتحريره من أغلال الإيديولوجيات، والدعوات الهدامة، والتزمت والغلو الديني، والتعصب اللغوي، والتطرف العرقي. وإلا ظل الخوف كابحا لنشاط العقل، معيقا لحركة الإرادة، حاجزا أمام تدفق المشاعر والعواطف النبيلة.

ومن شروطها كذلك تجاوز التقليد والعادة، فلا تحرر لمن لم يتحرر من سلطان العادة و مألوف الآباء والأجداد، ففي السياق الفلسفي ترفض الفلسفة نفسها إعطاء صفة الإطلاقية لهذه الفلسفة على حساب تلك، و لهذا القول على حساب ذاك، فالكل يدخل حلبة الطرح الفلسفي والعقلي، والفعل التاريخي والواقعي، وهما معياري التمييز بين مختلف الأقوال والأطروحات الفلسفية، وإثبات صدقيتها، ونفس الشيء نجده في السياق الديني فالوحي في علوه كقول ثقيل، لا يضاهيه شيء من قول واجتهاد البشر، وبالتالي من الجناية على القرآن والسنة وعلى كل نص ديني أن نخضعه ونستسلم فيه لاجتهادات السلف فقط دون اجتهاد، وتشتد هذه الجناية عند الخضوع لتحريف المحرفين و إبطال المبطلين وتأويل الغالين والمتشددين، ولا نعمل على تأهيل قلوبنا و تأهيل عقولنا للاجتهاد أفضل مما اجتهد من سبقنا، وللعمل أفضل مما عمل من سبقنا. وجعل القيم الدينية قيما للإنسانية ككل بمسلك الإقناع بلسان الحال قبل لسان القول، إذ دلالة الحال أبلغ من دلالة المقال.

دوائر انطلاق عملية التحرر

إن الحديث عن الحرية بما هي قيمة والتحرر بما هو سيرورة بناء هذه القيمة في ذات الشخص وذات الجماعة، يجعل هذه الحرية أسمى حق من حقوق الإنسان، الذي بدونه تفقد كل الحقوق معناها، وتصبح لاغية. ويطرح السؤال عن مشاتل استنابات الإنسان المتحرر والمسؤول، والفاعل الخير الفاضل المتحلي بحلية الفضيلة.

* تحرير دائرة حقوق الأسرة وتحرر الأشخاص: مما لا شك فيه أن الأسرة هي بوثة الشخص ونافذته التي يطل عبرها في بداياته على العالم، وإن أي حركة تحرر وتجديد لا بد أن تنطلق من الأسرة، وأي منظومة لحقوق الإنسان لا تجعل من "حقوق الأسرة" منطلقها هي منظومة حقوق تجزيئية، ولعل

هذا ما نشهده في الواقع من تناسل الأدبيات الحقوقية مجزئة الإنسان إلى طفل ورجل وأنثى، بل والأخطر من ذلك ما نجده من إقامة التعارضات بين حقوق المرأة والرجل، وحقوق الأطفال والآباء، وغيرها من التعارضات التي تحطم إنسانية الإنسان. ويجدر بنا كما يقول عبد الوهاب المسيري في كتابه "[قضية المرأة: بين التحرير والتمركز حول الأنثى](#)" الحديث عن "حقوق الأسرة" كنقطة بدء ثم يتفرع عنها وبعدها "حقوق الأفراد" الذين يكوّنون هذه الأسرة. أي أننا سنبدأ بالكل (الإنسان الاجتماعي) ثم نتبعه بالأجزاء الفردية. ومن شأن هذا التصور الجديد لحقوق الإنسان بناء نواة اجتماعية ليس فيها قهر ذكوري ولا تمركز أنثوي ولا استضعاف للنساء وللطفولة، بل منظومة اجتماعية تكسب أفرادها مقومات التحرر ومناعة ضد الاستعباد والاستلاب. بعدما تحرر نفسها بتكامل أفرادها من الجهل والفقر وكل أشكال القهر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.⁴

* تحرير دائرة التربية والتعليم، من أجل تربية وتعليم التحرر: يبقى دور الأسرة مستمرا في تحقيق التحرر ومن المفروض أن تسنده وتعضده مؤسسات أخرى لعل أبرزها وأهمها المدرسة والنظام التعليمي، لا نطمح في إنسان متحرر إذا خضع لنظام تربوي يطحن فطرة الأشخاص المتحفزة للخير والفضيلة، ويقمع ويزرع فيهم الخوف من الحاضر والمستقبل، ويتهيب أمجاد التاريخ لأنها تشكل عامل إزعاج وإفحام للممسكين بزمام الأمر في الحاضر. يجعل بناء الولاءات للبنى القائمة في السياسة والاقتصاد والاجتماع مقدم على بناء الإنسان المتحرر، ولذلك فإن من أولى الأولويات تحرير التربية والتعليم، من كل أشكال التبعية والقوالب الجاهزة، و فرض بيداغوجيا التحرر والتحرير والتنوير، التي تتغيا بناء إنسان متحرر مؤمن بأن ماهيته هي الحرية، فلا يستعبده شيء، قادر على تحرير المعرفة والفكر والوصول إليها في مضانها، وتحريرها ممن يسعون للاستئثار بها دونه، وهو الإنسان التنويري الذي لا يكتفي بذاته بل يسطع نجمه حيثما ولى وجهه، معلما ومحبرا ومنورا يسعى بنوره في الناس.

* دائرة المعرفة العلمية والثقافة والفن والإعلام: فدائرة الأشكال الرمزية العلمية والثقافية والفنية والإعلامية وغيرها، لا شك قادرة على الإسهام في إيقاظ الرغبة في التحرر، ولعل هذا ما يقوي النزوع إلى الهيمنة لدى النظم السلطوية على هذه البنيات الرمزية، وممارسة الرقابة المستمرة على نشاطها، بل ومحاولة تسخيرها وجعلها أجهزة إيديولوجية رمزية للدولة وفق ما تصوره لويس ألتوسير. والأشخاص والمجتمعات في سعيها للتحرر من الضروري أن تحرر هذه البنيات وتقيمها بعيدا عن تدخل

⁴ - المسيري عبد الوهاب، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، الطبعة الثانية أغسطس 2010، نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع، ص 38

السلطة ورقابتها، فالبحث العلمي والإبداع الثقافي والفني، وممارسة مهنة الصحافة، لا تؤتي ثمارها المرغوبة في حركة التحرر ما لم تستقل عن الدولة وتأثيرها السلبي. فشتان بين فنان يغرد في جو سماء الحرية وبين فنان كسير كسيح يئن في قفص السلطوية، وشتان بين عالم تائر حر في اختياراته، وعالم باع نفسه لهوى السلطوية، وشتان بين إعلامي حر لا يساوم على حريته، وإعلامي حشر نفسه في جوق السلطوية.

يتحصل لنا مما سبق أن التحرر كسيرورة شخصية وجماعية، يعني التحفز الدائم من الذات لفعل الخير والسلوك وفق الفضيلة، واستنهاض كل قوى الذات العقلية والبدنية والوجدانية لهذه الغاية، ويشترط في تحقق التحرر إعادة الاعتبار للشخص الإنساني نواة الجماعة البشرية، وتحريره من الخوف، وفك أغلال التقليد والعادة من ربة عنقه، وهذا يتم من خلال تحرير ثلاثة دوائر مهمة جدا وهي دائرة حقوق الأسرة وأفرادها، ودائرة المدرسة، ودائرة العلم والثقافة والفن والاعلام.

المراجع:

- علي عزت بيكوفيتش، هروبي إلى الحرية، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، الطبعة الأولى أيار مايو 2002، دار الفكر دمشق، ص24
- الحبابي محمد عزيز، من الحريات الى التحرر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، طب 1 بيروت 2014
- المسييري عبد الوهاب، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، الطبعة الثانية أغسطس 2010، نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع،